إشكالية العلاقة بين العيارين والشطار والسلطة البويهية

٣٣٤هـ-٤٤٧هـ / ٩٤٥-١٠٥٥م

د. موفق سالم نوري (*)

تمهيد

لعل حركة العيارين والشطار كانت من اكثر الحركات الاجتماعية والظواهر التاريخية إثارة للاهتمام بين المعنيين قديما وحديثاً. وإذا كان القدامى قد اتفقوا على نقد الحركة ونعتها بأشنع النعوت، إلا ان غالبية المحدثين راحوا يكيلون لها الأوصاف التي تمجدها وترفع

من شأنها. ومما جاء في هذه التوصيفات: "كانت حركة العيارين والشطار خلال فترة الغزو البويهي حركة مناهضة للتسلط الأعجمي بسياساته ومبادئه"[١]. و "انها تمثل، دون شك، وجها من وجوه المقاومة الشعبية للتعسف البويهي والتسلط الأعجمي"[٢]. كما انها تمثل "ثورة ضد الأسياد السياسيين وضد أسياد المال"[٣]. فضلا عن كونها تمثل (حركات ثورية عنيفة) ضد (السلطة الأجنبية) و (التغلب

(*) كلية الآداب / جامعة الموصل.

(١) د. فاروق عمر فوزي، النهوض العربي في العراق ١٠٠.

(٢) السابق، ١٠١.

(٣) د. عبد العزيز الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ٢٨٣.

الأجنبي)[٤]. كما انها "إدانة لهذا العصر وثورة على فئة محددة قدر لها في ظروف سياسية وتاريخية معينة ان تستأثر لنفسها بالسلطة أو المال أو بهما معا[٥]. وان الذين تعرضوا لهجمات العيارين والشطار من أصحاب المال هم "بطانة السلطة"[٦]. وهكذا انصب تقويم الباحثين لهذه الفئة على انها جسدت حركة ثورية شعبية خاضت نضالا عنيفا ضد السلطة الأجنبية وضد أصحاب الأموال، وكان لسان حال هؤلاء الباحثين يقول ان حركة العيارين والشطار مارست نضالا قوميا وطبقيا على طريقة الكفاح الشعبي المسلح. وهو ما يحسن التوقف عنده على ضوء المؤشرات الآتية:

١. إن جانباً من هذه التصورات بشأن الحركة استند إلى قراءات مخطوءة للنصوص وتحميلها ما ليس له صلة حقيقية بواقع الامر، من ذلك القراءة التي قدمها أحد الباحثين بشأن نص يتعلق بأحداث عام (٣٦١هـ) حيث اضطربت الأوضاع في بغداد على اثر التدهور الذي أصاب منطقة الثغور مع الدولة البيزنطية، فلحقت الخسائر الفادحة بجانب المسلمين، فقد جاء في النص: "وفي هذه السنة وقعت في بغداد فتنة عظيمة، واظهروا العصبية الزائدة وتحزب الناس، وظهر العيارون واظهروا الفساد، واخذوا أموال الناس. وكان سبب ذلك ما ذكرناه من استنفار العامة للغزاة، فاجتمعوا وكثروا، فتولد بينهم من أصناف البنوية، والفتيان، والسنة، والشيعة، والعيارين، فنهبت الأموال، وقتل الرجال، وأحرقت الدور وفي جملة ما

(٤) د. بدري محمد فهد، العامة في بغداد، ٢٨٦؛ طالب جاسم حسن، المقاومة العربية للتسلط البويهي في العراق، ٢٩٤.

(٥) محمد رجب النجار، حركة الشطار والعيارين، ٩.

(٦) طالب جاسم حسن، المقاومة العربية للتسلط البويهي في العراق، ٢٩٩.

احترق محلة الكرخ(٧). فجاءت القراءة على النحو الآتي: "حيث نجد تفجيراً عارماً في الوسط الشعبي، أوقع الخسائر الكبيرة في دور وممتلكات السلطة، بدأ هذا الانفجار داخل الحشود الجماهيرية المتطوعة لصد هجمات الروم على الجزيرة الفراتية، وهذا يعني ان العيارين كانوا ضمن فصائل الشعب المتطوعة للدفاع، إلا ان تحسسهم بعدم جدية السلطة البويهية في إسناد موقف الشعب والتوائها لإعاقة هذا الموقف الجماهيري، حدى بهم (العيارون) لاستثمار هذا التجمع وتفجير الموقف داخلياً لإرهاق السلطة والإطاحة بها"(٨).

وبشان أحداث عام (٣٦٤هـ) جاء في نص آخر: "وتغلبوا بالقوم، واخذوا الخفائر عن الأسواق والدروب"(٩). فجاءت القراءة على النحو الآتي: "ويبدو انهم أرادوا ان يؤكدوا وجودهم السياسي وتحديهم للسلطة البويهية فاخذوا الضرائب من الأسواق والدروب"(١٠). ولا شك في ان مثل هذه القراءات ليست منهجية، أغفلت الفهم الصحيح لمضامين النص الواقعية ودلالاتها الفعلية، المستندة إلى ما يعرف بالنقد الباطني الإيجابي للنص فجاءت هذه القراءات أسيرة الفهم الايديولوجي للنص منكفئة على معطيات فكرية مسبقة استهدفت رفع شأن الحركة إلى مستوى النضال الوطني والقومي والطبقي.

ومما عزز هذا الأمر، اعتماد المنهج الانتقائي في تعاطي هذه الظاهرة التاريخية لتعزيز معطيات القراءة الأيديولوجية لها. لذا ترى هؤلاء الباحثين

---

(٧) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٨، ٦١٩.

(٨) طالب جاسم حسن، المقاومة العربية للتسلط البويهي في العراق، ٢٩٧.

(٩) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ١٨٧.

(١٠) طالب جاسم حسن، المقاومة العربية للتسلط البويهي في العراق، ٢٩٧.

يغفلون الإشارة إلى وقائع تاريخية كثيرة تقدم فهما آخر للحركة، ان غياب الموضوعية في مثل هذه المعالجات أسفر عن تصورات غير دقيقة بشأنها.

٢. الانطلاق من وحدة تاريخ الحركة، ذلك ان المعنيين بها ربطوا أولها بآخرها، دون تمييز بين المراحل التي مرت بها. فقد لعبت هذه الحركة أدوارا مهمة في صراع الأمين والمأمون فوقف اتبعاها إلى جانب الأمين بوصفه يمثل الشرعية أولا وللدفاع عن مدينتهم ثانيا، وكان ذلك في أواخر القرن الثاني للهجرة، ثم وقفوا إلى جانب المستعين في صراعه مع القادة الأتراك وللأسباب نفسها، وكان ذلك في منتصف القرن الثالث للهجرة. حيث جاءت النصوص واضحة وصريحة في إشارتها إلى ما بذله العيارون والشطار في كلا الموقفين، حيث قاتلوا ببسالة إلى جانب الخليفتين منافحين عن مدينتهم بغداد. أما ما حصل في القرنين الرابع والخامس للهجرة فهو أمر مختلف تماماً. عليه فان تقويم الحركة يجدر ان ينطلق من واقعها الفعلي في كل مرحلة وعدم احتساب المراحل على بعضها، فذلك ما يفقد التقويم مصداقيته ودقته. ان هذا التباين في طبيعة الحركة بين المرحلتين، أي القرنين الثاني الثالث من جهة والرابع والخامس من جهة أخرى. أدركه بعض الباحثين، بيد انه فسر ذلك على انه ناجم عن انشقاق أصاب الحركة، فضلا عن العصابات التي استغلت اسمها استغلالا سيئاً لتحقيق مصالح نفعية أنانية ضيقة(١١). غير ان هذا التفسير لا تدعمه آية نصوص أو مؤشرات من نوع ما، ولا يصمد أمام أي نقد تاريخي منهجي، فهو لا يعدو عن كونه محاولة لإبعاد الشبهات عن الحركة والعمل على تلميع صورتها.

(١١) د. فاروق عمر فوزي، النهوض العربي، ١٠٠.

٣. ومن المنزلقات الخطيرة التي وقع فيها عدد من الباحثين في معالجتهم للقضايا التاريخية. انطلاقهم من روح عصرهم ومن قضاياهم الفكرية الخاصة ثم إسقاط ذلك على الماضي، وهو ما نبه عليه كروتشه عندما قال: (التاريخ كله تاريخ معاصر) الأمر الذي يلزم الباحثين التحرر من المقومات الفكرية لعصرهم عند بحثهم ظواهر الماضي التاريخية، هذا المنزلق وقع فيه الذين كتبوا في تاريخ العيارين والشطار، فانطلقوا من الموجة اليسارية التي سادت في الساحة العربية لأربعة عقود من الزمن منذ منتصف القرن الماضي، وترسخت مفاهيمها في ذاكرة الباحثين ومنها: الكفاح الشعبي المسلح، والنضال الوطني من اجل الاستقلال، والنضال القومي من اجل الوحدة، والنضال الطبقي ضد الطبقات المستغلة وغيرها. مشكّلة المناخ الفكري العام والسائد، تشربه الباحثون ثم أسقطوه على موضوعاتهم التاريخية. لهذا فاننا نلمس في ثنايا كلامهم روح الفكرة المعاصرة بل ومفرداتها، عليه جاء تفسير حركة العيارين والشطار على أساس مشروعيتها (الثورية) مستبعدين المشروعية (الشرعية) من تقويم الحركة. تلك المشروعية التي كانت تحكم حركة التاريخ الإسلامي، فالفقه الإسلامي ومعطياته الفكرية هي التي شكلت المجال الفكري لحركة هذا التاريخ. وفي هذا الإطار فان البويهيين لم يكونوا أجانب ولا هم غزاة، بل هم مواطنون في الدولة الإسلامية، حملوا معاني المواطنة ودلالاتها الشرعية، عاشوا في كنف هذه الدولة ودانوا بدينها، ولهم حق ممارسة الفعل السياسي في إطار الحياة السياسية الإسلامية. وهم باستيلائهم على السلطة كانوا (متغلبين) وليسوا غزاة أجانب، وهذا التقويم لا يتضمن مديحا أو ثناءا على فعلهم السياسي، بل وضعه في إطار التعريف الشرعي الصحيح له. لان ذلك يساعد على فهم آية أفعال أو ردود أفعال معاصرة على الأساس الشرعي أيضا. من ذلك

ان فهم آية أفعال مناوئة للبويهيين على أساس وطني قومي هو فهم منحرف عن الحقيقة لا يمت للواقع بصلة.

وهذا ما يمكن قوله بشان أصحاب الأموال، فالفقر الذي عاشه قطاع من العامة لا يسوغ (شرعيا) السطو على أموال الآخرين حتى وان قصروا في أداء الحقوق الشرعية المترتبة عليهم مثل الزكاة، وهو ما حاول أحدهم من خلاله تسويغ نشاطه، بذريعة ان التجار لم يؤدوا ما عليهم من زكاة أموالهم، وهم بذلك جعلوها عرضة لأصحاب الحاجة من فقراء ولصوص، شاء أرباب الأموال أم كرهوا[١٢]. مع اننا من الناحية المبدئية لا نغفل العامل الاقتصادي الذي اسهم بشكل فعال في ظهور هذه الحركة. المتمثل بالتباين الكبير في الثروة بين الفقراء والأغنياء، وسوء الأوضاع المعاشية لطبقة العامة[١٣]. ثم عجز الدولة عن القيام بواجبها في إقامة الأحكام الشرعية للدين الإسلامي وبما يوفر حياة آمنة كريمة لكل مواطن[١٤]. فكانت النتيجة الطبيعية إفراز مثل هذه الحركات بكل تداعياتها السلبية، فالمجتمع والدولة يتحملان وزر مثل هذه النتائج.

عوامل نمو الحركة وتوسع نشاطها

مثلث حركة العيارين والشطار ظاهرة تاريخية متأصلة في الواقع الذي ظهرت فيه، فهي بوجهها التقليدي المعروف ظهرت منذ أواسط القرن الثاني للهجرة. وراحت في نشاطها بين مد وجزر، ثم شهد النصف الثاني من القرن

(١٢) التنوخي، الفرج بعد الشدة، ١٠٦/٢.

(١٣) د. عبد العزيز الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ٢٨٢ _ ٢٨٣.

(١٤) د. موفق سالم نوري، العامة والسلطة في بغداد، ٣٦ _ ٣٧.

الرابع للهجرة توسع الحركة اجتماعيا حينما استقطبت إلى داخلها فئات جديدة، كما انها نجحت في توسيع فعالياتها إلى حد كبير الأمر الذي اعجز السلطات الحكومية عن مقارعتها أو مواجهتها. مما يعني ان عصر التغلب البويهي (٣٣٤هـ ـ ٤٤٧هـ) شهد عوامل عديدة أنتجت هذا التحول في فعاليات هذه الفئة ومن هذه العوامل:

أ. ضعف بنية السلطة السياسية وأجهزتها

في عام (٣٣٤ هـ) خضعت الخلافة العباسية للتغلب البويهي، والبويهيون جماعة من الديلم موطنها في جنوب بحر قزوين. أخذت بالنمو والتوسع السياسي والعسكري حتى تمكنت من فرض نفسها قوة سياسية وعسكرية لا تقهر، وترافق ظهورها مع الضعف السياسي الذي أصاب الدولة العباسية ومؤسسة الخلافة نفسها. وازاء ذلك نجح البويهيون في مد نفوذهم إلى بغداد، مما أسفر عن وضع سياسي لم تكن له سابقة مثيلة طيلة اكثر من ثلاثة قرون، وعلى الرغم من ذلك تمكنوا من فرض وجودهم السياسي والعسكري على الدولة ليصبحوا حكامها الفعليين واصبح الخليفة رهينة لأهوائهم ورغائبهم، وجوده رمزي ليس اكثر. ومع ان البويهيين فكروا منذ البدء بتغيير أوضاع الخلافة عن طريق إقصاء الخليفة العباسي والمجيء بخليفة علوي، إلا انهم عدلوا عن هذه الفكرة بعد ان أشير عليهم بخطل هذا الرأي وخطره عليهم أنفسهم(١٥). عندها فقط وافق البويهيون على إبقاء الخليفة العباسي في منصبه، الذي بات مجردا من كل حول أو قوة سياسية وليس له من دواعيهما أي شيء، وبقي السلطان البويهي وحده صاحب النفوذ

(١٥) الهمذاني، تكملة تاريخ الطبري، ١١/٣٥٤ ـ ٣٥٥؛ ابن الأثير، الكامل، ٨/٤٥٢.

الحقيقي والسلطة الفعلية على كل المستويات، ففقدت الخلافة هيبتها في النفوس، ولا سيما تحت وطأة الممارسات التي قام البويهيون بها تجاه هؤلاء الخلفاء(١٦).

غير ان هؤلاء البويهيون، وبعد قرابة الربع قرن من وجودهم في السلطة في بغداد، بدأ الضعف يتسلل إلى كيانهم وسلطانهم، الأمر الذي سمح بظهور نشاط العيارين وتوسعه اعتبارا من عام (٣٦١هـ) كما سيتبين تباعا. وفي عام (٣٧٦هـ) شرعت دولة بني بويه بالضعف بشكل جلي ملفت للنظر(١٧). وفي عام (٤٢٦هـ) انحل أمر الخلافة والسلطنة ببغداد(١٨) حيث أخذت نذر السقوط تحيق ببني بويه من كل جانب. وبين هذين التاريخين كانت عوامل الصراع قوية، تفعل فعلها داخل مكونات السلطة البويهية، حيث ظهر ضعف الدولة واضحاً في عام (٣٦١هـ) عندما عجزت عن مواجهة الخطر البيزنطي في مناطق الثغور، فانعكس الأمر على الأوضاع في بغداد نفسها(١٩). ومن اوجه الصراع داخل هذه السلطة ما وقع بين بختيار (عز الدولة) وحاجبه سبكتكين من جفوة، دفعت الأخير على التمرد بالتعاون مع الجند الأتراك(٢٠). وكانت وفاة أي سلطان بويهي فرصة للجند والغلمان للسلب والنهب واضطراب الأحوال(٢١). بل ان هؤلاء حاولوا التدخل في نصب أو عزل كبار الشخصيات البويهية(٢٢). ليطالهم ما طال الخلفاء على أيديهم.

---

(١٦) انظر مثلا: ابن الأثير، الكامل، ٤٥٢/٨، ٧٩/٩؛ ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ١٧٨، ١٩٤.

(١٧) ابن العماد، شذرات الذهب، ٨٦/٣.

(١٨) أبوا الفدا، المختصر في أخبار البشر، ٥٨/٤.

(١٩) الهمذاني، تكملة، ٤٢٨/١١؛ ابن الأثير، الكامل، ٦١٨/٨-٦١٩.

(٢٠) الهمذاني، تكملة، ٤٣٢/١١؛ ابن الأثير، الكامل، ١٣٤/٨.

(٢١) انظر مثلا: ابن الجوزي، المنتظم في أخبار الملوك والأمم، ١٤٦/٨.

(٢٢) انظر مثلا: السابق، ٦٢/٨-٦٤.

ومن المظاهر الأخرى لتدهور أوضاع السلطة تلك الفتن التي ثارت من وقت لآخر بين الجند الأتراك والجند الديلم[٢٣]. وقريب من ذلك أيضا شغب هؤلاء الجند على السلطات البويهية من اجل تحصيل رواتبهم التي كانت غالباً ما تتأخر عن موعدها بسبب العجز المالي الكبير، أو ان هذا الشغب كان يقع لأية أسباب سياسية أخرى. فقد تكرر هذا المشهد لمرات كثيرة[٢٤]. وكان من نتائجه ليس ضعف الإحساس بالمسؤولية تجاه المجتمع وحسب، بل تطور الأمر إلى حد قيام أجهزة السلطة بالاعتداء على ممتلكات المجتمع في بعض الأحيان[٢٥].

وإزاء هذا التدهور في بنية السلطة ومكوناتها، وجد العيارون فرصتهم لممارسة نشاطهم في أعمال السطو والسلب والنهب، وجاءت إشارات عديدة إلى الصلة المباشرة بين واقع السلطة هذا وبين التصعيد المتنامي لفعاليات العيارين والشطار، كما حصل في أحداث عام (٣٦٤هـ)[٢٦]. وأحداث عام (٣٨٩هـ)[٢٧]. وأحداث عام (٣٩١هـ)[٢٨]. وأحداث عام (٤١٦هـ)[٢٩]. ثم أحداث عام (٤١٧هـ)[٣٠]. إذ انعكس الضعف المتزايد في بنية السلطة السياسية للدولة على

---

(٢٣) انظر مثلا: ابن الأثير، الكامل، ٦٣،٤٩/٩.

(٢٤) انظر مثلا: السابق، ٤٥٦/٨، ٤١/٩، ١٠٠، ٣٦٦، ٤٢٣، ٤٤٦، ٤٧١، ٥٩٧؛ ابن الجوزي، المنتظم، ٧٣/٨، ٧٨، ٨٩؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، أحداث الأعوام (٣٨١-٤٠٠هـ) ١٢، ١٥.

(٢٥) انظر مثلا: ابن الجوزي، المنتظم، ٧٦/٨، ١٠٨؛ ابن الأثير، الكامل، ١٦٨/٩، ٣٥٣، ٦٢٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٧٣/١١.

(٢٦) ابن مسكويه، تجارب الأمم، ٣٥٥/٦.

(٢٧) الصابي، تاريخ هلال بن الحسن، ٥/٨-٦.

(٢٨) السابق، ٧٦/٨.

(٢٩) ابن العماد، شذرات الذهب، ٢٠٤/٣.

(٣٠) أبو الفداء، المختصر، ٥٤/٤.

أجهزتها المختلفة، ولا سيما الأمنية منها، متسببا في ارتخاء الحالة الأمنية في بغداد وربما انعدامها في بعض الأحيان، موفرا المناخ الأمثل ليمارس العيارون والشطار نشاطهم المعهود.

ب. الفتن والحروب الأهلية

منذ السنوات الأولى لدخول البويهيين إلى بغداد، وجدت الفتنة الطائفية طريقها إلى هذه المدينة التي نعمت بالأمان قبل ذلك لقرنين من الزمن، فحصدت هذه الفتن أعدادا متزايدة من أهل بغداد وعامتها. ليشكل ذلك خللا فادحاً في الحياة العامة للمجتمع، خسر بسببه هذا المجتمع الكثير من أبنائه أولا، ثم تدهور معالم الحياة المختلفة اقتصادية وأمنية واجتماعية، ليوفر ذلك المناخ الملائم ليمارس العيارون السطو والسلب والنهب. وقد أوردت المصادر إشارات عديدة إلى الصلة المباشرة أيضا بين واقع الفتنة وبين فعاليات هذه الفئة وممارستها لنشاطها المذكور. ففي عام (٣٨١هـ): "زادت الفتنة وتسلط أهل الدعارة فقلد أبو الفوارس بهستون بن ذرير الشرطة ونزل دار ابي الحسن محمد بن عمر التي على دجلة، وقبض على جماعة من العيارين وقتلهم وكبس دورهم ومنازلهم"(٣١). وجاء بشان أحداث عام (٣٩٢هـ): "عظمت الفتنة ببغداد بعد ان خرج أبو جعفر الحجاج عنها وزاد أمر العلويين العيارين وقتلوا النفوس وواصلوا العملات"(٣٢). وجاء بشان السنة اللاحقة أيضا: "اشتدت الفتنة وانتشر العيارون والمفسدون"(٣٣). كما جاء بشان

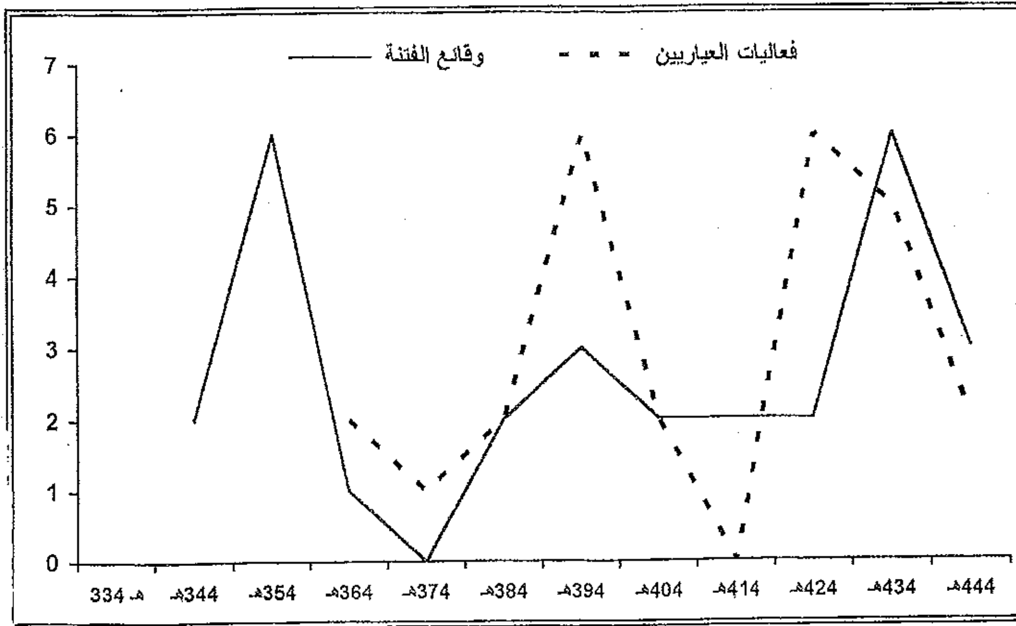
(٣١) الصابي، تاريخ هلال، ٥٧/٨.

(٣٢) السابق، ١٠٥/٨.

(٣٣) ابن الأثير، الكامل، ١٧٨/٩.

أحداث عام (٤٢٢هـ): "تجددت الفتنة ببغداد... وكانت فتنة عظيمة ... ودخل العيارون البلد"(٣٤)..

وربما لا يقدم المخطط الآتي تطابقا بين الحركة البيانية لواقع الفتنة ومثيلتها فيما يتعلق بالعيارين والشطار، غير ان ذلك لا يعني انعدام صلة السبب والنتيجة بين الأمرين بدلالة النصوص المتقدمة، لان ظروف الفتنة تعني في كل الأحوال اضطراب حبل الأمن، وهو ما يتمناه العيارون والشطار ليمارسوا فعالياتهم المختلفة.



مخطط بياني يشير إلى وقائع الفتنة وفعاليات العيارين في بغداد تم رسم المخطط في ضوء المعلومات المستقاة من المصادر التاريخية

---

(٣٤) السابق، ٩/٤١٨.

بدأت الفتنة تجد طريقها إلى المجتمع البغدادي اعتبارا من عام (٣٣٨هـ)[٣٥]. لتشتد في أحيان عديدة مخلفة وراءها أعدادا كبيرة من القتلى من كلا الطرفين المتحاربين، فضلا عن حرائق مدمرة أتت على الأسواق والدور والممتلكات، كما حصل في عام (٣٤٦هـ)[٣٦]. وقد شجع البويهيون هذه الأوضاع في بعض الأحيان، كما وقع في عام (٣٥١هـ)[٣٧]. وفي فتنة عام (٣٥٢هـ) قتل من الناس خلق كثيرون، ورافق ذلك انتهاب الأموال والممتلكات[٣٨]. وتكررت مثل هذه الأعمال في عام (٣٦١هـ) فكان القتل والنهب واسعين، وكان دور العيارين بارزا في ذلك[٣٩]. ولم تهدأ الفتنة التي وقعت في عام (٣٨٢هـ) إلا بعد تدخل الشرطة وقتل عددٍ من الأشخاص، فسكنت الأوضاع[٤٠]. ولم تهدا الفتنة في عام (٣٩٨هـ) إلا بعد ان زجت الشرطة بعدد من المفتنين أصحاب الفتنة في السجون[٤١]. وفي عام (٤٠٨هـ) تطورت الأحوال بان أقام أصحاب المحال السكنية الأبواب والاستحكامات على دروبهم[٤٢]. وفي عام (٤٤١هـ) تحول الأمر إلى إقامة الأسوار والتحصينات حول الأحياء السكنية[٤٣]. وفي عام (٤٢٢هـ) كانت الفتن عديدة تكرر

(٣٥) ابن الجوزي، المنتظم، ٣٦٣/٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٢١/١١.

(٣٦) ابن الأثير، الكامل، ٥٢٧/٨، ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٣٤/١١.

(٣٧) ابن الجوزي، المنتظم، ٨/٧؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث الأعوام (٣٥١-٣٨٠هـ)٨.

(٣٨) ابن الأثير، الكامل، ٢٥٨/٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٥٣/١١.

(٣٩) ابن الأثير، الكامل، ٦١٩/٨.

(٤٠) السابق، ٩٤/٩؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث الأعوام (٣٨١-٤٠٠هـ) ١٣.

(٤١) ابن الأثير، الكامل، ٢٠٨/٩.

(٤٢) ابن الجوزي، المنتظم، ٢٨٧/٧.

(٤٣) السابق، ١٤٠/٨-١٤١.

وقوعها بين شهر وآخر، تمتع العيارون خلالها بأجواء مثالية لممارسة نشاطهم(٤٤). أما في عام (٤٥٢هـ) كانت الفتنة عادية، بيد ان الجديد فيها هو اقتتال العيارين فيما بينهم، كل فريق منهم متحزب للطائفة التي ينتمي إليها(٤٥).

ج. تدهور الأوضاع الاقتصادية

ما ان وضع البويهيون أقدامهم على ارض بغداد حتى بدا الغلاء يظهر في أسواقها، فبلغ عدد حالات الغلاء خلال عصر التغلب البويهي اكثر من خمس عشرة حالة. وهو أمر ان دل على شيء، فانما يدل على اضطراب كبير في الأحوال الاقتصادية والمعيشية للبلاد، وانعدام حالة الاستقرار الاقتصادي فيها، لينعكس ذلك بدوره على اضطراب الحياة الاجتماعية، فالكثير من جوانب السلوك الفردي أو الجمعي على حد سواء مرتهن بطبيعة الأوضاع الاقتصادية، فإذا ما تردت هذه الأوضاع وتدهورت، فان ذلك سيولد سلوكيات اجتماعية مضطربة ومنحرفة ومتطرفة، وذلك له مردوده على طبيعة العلاقات بين الطبقات الاجتماعية، اذ يصوب المعدمون أبصارهم ناحية أموال الأغنياء والأثرياء واجدين فيها فرصة مواتية لإشباع حاجاتهم التي حرموا منها تحت ضغط الفقر والبؤس.

ومن أقسى حالات الغلاء التي واجهت أهل بغداد ما وقع في عام (٣٣٤هـ)، فاضطر الناس إلى أكل الميتة، والكلاب والسنانير، وبعض النباتات الطبيعية، مسببة لهم اضطرابات صحية خطيرة، بل ثمة كلام يشير إلى ان بعضهم أكل لحم

(٤٤) ابن الأثير، الكامل، ٩/٤١٨.

(٤٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٢/٣٦.

البشر لسد جوعته(٤٦). وفي عام (٣٦٤هـ) ارتفعت الأسعار ارتفاعا كبيرا وانعدمت الأقوات من السوق وبيع الكر (=٢٧٠٠ كغم) من الدقيق بـ (١٧٥) دينارا(٤٧). وبعد ذلك بعشر سنوات غلت الأسعار مرة أخرى فكانت مجاعة (عظيمة) وبلغ كر الحنطة ثلاثة آلاف درهم والكر الشعير ألفي درهم، حتى مات الناس على الطرق(٤٨). وذلك ارتفاع هائل في الأسعار مقارنة بالغلاء السابق، وفي غلاء عام (٣٧٧هـ) اضطر الناس للرحيل عن بغداد(٤٩). وفي غلاء عام (٣٨٢هـ) بيع رطل (= ٤٠٦/٢٥غم) الخبز بأربعين درهما(٥٠). وفي عام (٣٩٧هـ) تسبب الغلاء في شغب الجند وفتنة العامة في بغداد(٥١). وفي عام (٤٣٩هـ) جاء الغلاء والوباء سوية ليحصدا أعدادا كبيرة من الناس حتى خلت الأسواق منهم(٥٢). ثم تكرر ذلك في العام اللاحق أيضا(٥٣).

ان أجواء من هذا النوع تسببت، بدون أدنى ريب، في تهيئة الظروف الملائمة ليمارس العيارون نشاطهم في السلب والنهب والسطو على الأموال والأقوات وغير ذلك. فوجدوا في أوضاع الغلاء دافعا لا يُرد ومسوغا إضافيا لزيادة حجم نشاطهم.

---

(٤٦) الهمذاني، تكملة، ٣٥٧/١١؛ ابن الأثير، الكامل، ٤٦٥/٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢١٣/١١.

(٤٧) الهمذاني، تكملة، ٤٣٩/١١.

(٤٨) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٢٢١.

(٤٩) ابن الجوزي، المنتظم، ١٣٦/٧.

(٥٠) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٢٤٥؛ الذهبي، حوادث الأعوام (٣٨١-٤٠٠هـ)١٣.

(٥١) ابن الأثير، الكامل، ٢٠٤/٩.

(٥٢) السابق، ٥٤١/٩؛ انظر أيضا: ابن الجوزي، المنتظم، ١٣٢/٨.

(٥٣) ابن الأثير، الكامل، ٥٥٢/٩.

أنشطة العيارين وفعالياتهم

ان أي تقويم حقيقي لحركة العيارين والشطار، لابد من ان ينطلق من أحد أمرين أو كلاهما معا: فإما معطياتها الفكرية أو معطياتها التاريخية من أفعال وممارسات ووقائع، وبما ان المعطى الأول منعدم كليا، لان المنتمين إلى الحركة والعاملين فيها أو معها ابعد ما يكونون عن امتلاك ناصية الفكر ودواعيه لضحالتهم الاجتماعية والثقافية، فعجزوا عن التعبير الثقافي عن وجودهم أو بيان مقاصدهم وأهدافهم، بل أن ذلك لم يعنهم في شيء. لذا لم يبق أمامنا سوى استقراء الواقع واستقصائه لتبين طبيعة هذه الحركة ومن ثم أهدافها وغاياتها الحقيقية، وذلك السبيل الوحيد لأي باحث في هذه الظاهرة.

من الملاحظ ان المصادر التاريخية، وهي تعالج أوضاع هذه الفئة، غلب عليها استخدام تسمية العيارين. وهذا يجب ان لا يقود إلى الاعتقاد ان ثمة فرق أو تمييز بين العيارين والشطار. فالاسمان يدلان في الواقع على مسمى واحد، بل ان لهذا المسمى اسم ثالث هو: الفتوة أو الفتيان، اذ ورد في قول شاعر يصف أفعال العيارين والشطار أبان الصراع بين الأمين والمأمون، وما أبلوه من بلاء حسن في التصدي لقوات طاهر بن الحسين، فقال الشاعر:

ويقول الفتى إذا طعن الطعـــ ـــنة خذها من الفتى العيار(٥٤).

كما ان القشيري (ت٤٦٥هـ) استخدم هذه التسميات الثلاث مرادفة لبعضها دالة على مدلول واحد(٥٥). على انه لابد من إدراك أن مدلولات الفتوة في هذه

---

(٥٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ١٧٥/٨.

(٥٥) الرسالة القشيرية، ١٧٩.

المرحلة هي ليست ذات مدلولاتها كما ظهرت في مرحلة لاحقة ابان خلافة الناصر لدين الله، ولا سيما من الناحية الحركية والتنظيمية، حيث تراجعت تسمية العيارين والشطار لتحل محلها كليا تسمية الفتوة دالة على معان وأفكار جديدة، وان كانت هذه قد انبثقت من رحم تلك.

وقد توسعت حركة العيارين والشطار في عصر التغلب البويهي (٣٣٤هـ - ٤٤٧هـ) هذا توسعا كبيرا سواء في حجمها وتنظيمها أو طبيعة أعمالها وأنشطتها، ومن ملامح هذا التوسع ان أشرافا من العباسيين والعلويين انظموا إلى هذه الفئة، وشاركوا في أنشطتها(٥٦). وجاء ذلك تحت ضغط الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي أصابت هؤلاء، وبوصف ذلك من نتائج التغلب البويهي الذي رافقه سوء السياسة والإدارة(٥٧). وبلغ من اتساع قاعدة هذه الفئة ان قال المقدسي (ت٣٧٥هـ) بشأنهم في إطار حديثه في أهل بغداد وظرفهم، فلما بلغ الكلام بشان العيارين قال: "إذا تحركوا ببغداد هلكوا"(٥٨). يريد بذلك أهل بغداد وما يصيبهم من أذى كبير بسبب الفعاليات الواسعة للعيارين المتأتية من كثرة عددهم، ثم قال واصفا جولاته ورحلاته ومشاهداته في أثنائها: "ورأيت دول العيارين"(٥٩). كناية عما بلغوه من سطوة هائلة ونفوذ كبير وتحكم في الأحوال العامة في بغداد وغياب

---

(٥٦) ابن الجوزي، المنتظم، ٢٢٠/٧؛ الذهبي، العبر، ١٧٨/٢؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٢٦٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٣٣٠/١١.

(٥٧) د. عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ٩٣.

(٥٨) احسن التقاسيم، ١٣٠.

(٥٩) السابق، ٤٥.

للسلطة الرسمية، فظهروا وكأنهم هم الحكام، هذا مع العلم ان المقدسي توفي قبل ان يرى ما هو اعظم مما رآه في عصره، وهو ما سنبينه تباعا.

وتباينت الآراء بشان تقويم الجانب الأخلاقي لهذه الفئة، فهم في أفعالهم كانوا قد اظهروا جانبا من الأمانة والتعاون والكرم ورعاية النساء ومساعدة الفقراء والضعفاء واظهروا الشجاعة والصبر وتحمل الصعاب(٦٠). وبلغت الشهامة ببعضهم انه رفض تسليم غلام مطلوب لدى السلطات، وتحمل ان يضرب ألف سوط (كذا) على ان يفعل ذلك(٦١). وامتحن احد وجوه العيارين في أخلاقه بان بيعت له جارية على انها غلام، وكانت ذات جمال وبهاء، فلبثت عنده عدة شهور، فلما سئلت عن حاله، ردت انه لم يعرف انها جارية لانه لم يمسها أصلا لاعتقاده انها غلام وانه لا يجوز اتيانه(٦٢). ومن ناحية أخرى فان الوقائع كشفت أحيانا عن سلوكيات مخالفة فيها اعتداء حتى على النساء من فعل الفواحش والمحرمات، وقد جاء في قصة أحد هؤلاء يعرف بـ (ابن الحراصة) كان مظهرا "اللقمار والعيارة والفجور وبيع الخمور وتأوي إليه اللصوص" ولا يستطيع أحد أن ينكر عليه في ذلك لصلته بأحد قادة الجند الديلم وحمايته له مقابل ضمان ألفي درهم في كل شهر، فاذا عجز عن السداد، اخذ كل من اجتاز بدره مستوليا على ما معه من مال(٦٣).

(٦٠) التوحيدي، المقابسات، ٤٩٦؛ ابن الجوزي، الأذكياء، ١٩٦-١٩٨؛ تلبيس إبليس، ١٩٢.

(٦١) القشيري، الرسالة القشيرية، ١٧٩.

(٦٢) نفسه.

(٦٣) التنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، ٣٤٩/١.

وهم مهما حاولوا إظهاره من خلق، فان ذلك لم يقنع المجتمع بسبب ما ألحقوه بحياة الناس من أذى كبير، حيث سخر ابن الجوزي (ت ٥٧٩هـ) من فتوتهم التي غالباً ما كانت تنتهي بسلب الناس أموالهم وممتلكاتهم، فضلا عن إرعابهم وإفزاعهم[٦٤]. كما قال التوحيدي (ت ٤١٤ هـ) بشأنهم: "وهذا الرهط ليس لأحد فيهم اسوة، ولا هم لأحد قدوة، لغلبة الباطل عليهم، وبعد الحق عنهم، ولان الدين لا يلتاط بهم، والفتوة التي يدعونها بالاسم لا يحلون بها في الحقيقة، كيف تصبح فتوة إذا خالفها الدين؟"[٦٥].

ومن الواضح ان تقويم التوحيدي وابن الجوزي لأخلاقيات هذه الفئة لم ينطلق من حيثيات وجودها، بل انطلق من التصور الإسلامي الذي يرفض معالجة الخطأ بخطأ آخر مقابل. وفي الوقت نفسه لم نجد في أدبيات العصر آية معالجة شرعية لطبيعة الأوضاع التي أنتجت هذه الفئة، وربما انطلق المعنيون من الاكتفاء بالتصور العام ان إقامة الشريعة الإسلامية كفيل وحده بمعالجة أي خلل يظهر في حياة الأمة. على ان أحدا لم يعمل جهده في البحث عن الآليات الشرعية التي تمكن من إقامة الشريعة بالشكل الذي يعالج الخلل الحاصل في بنية الحياة العامة للامة.

ان فعاليات وانشطة العيارين والشطار لم تكن نشاطا واحدا متصلا على طول هذا العصر، بل جاء نشاطهم على شكل موجات، تراوحت كل موجة بين خمس إلى عشر سنوات، تفصل بينهما أيضا أوقات من تراجع هذا النشاط تراوحت هي الأخرى عموما بين خمس وعشر سنوات، وعلى النحو المتتابع الاتي:

---

(٦٤) تلبيس إبليس، ١٩٢.

(٦٥) رسالة الصداقة والصديق، ٤٨.

أ. عقد الستينات من القرن الرابع للهجرة

بدا أول نشاط ملفت للنظر مارسه العيارون عام (٣٦١هـ) على خلفية التداعيات المترتبة على تدهور أوضاع المسلمين في مواجهة الدول البيزنطية، وهو الأمر الذي ألح كثيرا على مشاعر المسلمين، ذلك ان آية انتكاسه تصيب قوة الدولة الإسلامية في مناطق الثغور كانت تذكر المسلمين بأيام عزهم ومجدهم في مواجهة الأخطار الخارجية، ثم تجري المقارنة مع ما آل إليه الحال، فيبعث ذلك فيهم الغيرة والحمية، وأول مكان كانت تظهر فيه أصداء هذه التحولات هو بغداد بوصفها عاصمة المسلمين وحاضرتهم المنيعة، فقد استفزت اخبار مناطق الثغور مشاعر البغداديين ووجدوا ان ما حصل في ذلك العام كان مهينا للمسلمين ولدولتهم، فبدأت حالة من الاستنفار والتجمع في بغداد طالب فيها جمهور الناس بالجهاد واتخاذ الإجراءات المناسبة لصد الخطر البيزنطي، وقد أعلن كثير من الناس تطوعهم للقتال وطالبوا بتوفير المستلزمات المادية التي تمكنهم من القيام بهذه الفريضة. ولما تبين ان السلطات الرسمية لا تعير الأمر الجدية اللازمة، عليه اخذ الأمر بالتداعي بشكل خطير، من ذلك ان ملامح العصبية بدأت تحيق بالمكان، ما لبثت أن تطورت إلى فتنة طائفية، انتهزها العيارون لممارسة نشاطهم فـ "اظهروا الفساد، واخذوا أموال الناس"[٦٦].

وأظهرت هذه الواقعة ضعف السلطة وهشاشة بنيتها، وأنها غير قادرة على الضرب بقوة، لا في الداخل ولا في الخارج، لهذا تجد العيارين قد واصلوا نشاطهم في عام (٣٦٢هـ) على خلفية ما حصل في العام السابق، مما اضطر بختيار

---

(٦٦) ابن الأثير، الكامل، ٨/٦١٩.

(عز الدولة) للقدوم إلى بغداد من اجل تسكين الأوضاع فيها والسيطرة عليها، غير ان التفاقم زاد فـ "استولى العيارون والشطار على بغداد وكبسوا الدور وتعرضوا للحرم" حتى اصبح هؤلاء سادة الموقف في الشوارع والطرقات والمحال، فغاب الأمن وغاب القائمون عليه، هنا أفادت بعض الروايات ان هذا التدهور اضطر السلطات إلى إلقاء النار في الجانب الغربي من بغداد، حيث احترقت مساحات واسعة بما في ذلك الكرخ، بل ومُنع الناس من القيام بأية أعمال إطفاء للحرائق، فتأججت النيران "فأخذت يمينا وشمالا فأحرقت الوفا من الناس والبهائم وكان يوما عظيما لم يجر في الإسلام مثله" ثم أعطت السلطات الأمان للعيارين فسكنت الأوضاع[٦٧]. وفي رواية ثانية ان الوزير أبي الفضل الشيرازي، أرسل الحاجب صافي لمساعدة صاحب الشرطة في التهدئة، ولما كان هذا الحاجب مبغضا لاهل الكرخ، لذا أمر بإلقاء النار في سوق النحاسين لتمتد بعد ذلك إلى المناطق الأخرى[٦٨]. إلا ان تأمل الأحداث والقرائن يبعث على الشك في قبول هذه الروايات، اذ ليس من مصلحة السلطات، وهي المسؤولة عن توفير الأمن للناس والحماية لممتلكاتهم، ان تقوم بمثل هذا العمل، اما العيارون فهم جهة ليست مسؤولة، ويمكن لتصرفاتها ان تكون هي الأخرى غير مسؤولة، مع توفر الاستعداد للقيام بسلوك غوغائي منفلت، الأمر الذي يصرف الشكوك باتجاههم، ولا سيما ان وقائع مماثلة حصلت في السنوات اللاحقة أكدت المصادر نسبتها إليهم، فقاموا مثلا في عام (٣٦٣هـ) بالإفساد الواسع في البلد، ونهبوا الأموال[٦٩]. وقال سبط ابن

(٦٧) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ١٧٨.

(٦٨) الهمذاني، تكملة، ٤٢٩/١١.

(٦٩) ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٧٥/١١.

الجوزي بهذا الشان: "وكثرت الفتن وكبت المنازل واحترق الكرخ ثانيا"(٧٠). وقوله (كبت المنازل) لا معنى له إلا إذا كان ذلك تحريفا أو خطأ طباعيا والصواب هو (كبست المنازل) وهو التعبير الذي درجت المصادر على استخدامه لوصف عمل العيارين، وعليه فان سياق الخبر يبين ان العيارين هم المعنيون بالحريق الذي اشتعل في عام (٣٦٣هـ). وقد شهد هذا العام قتل عدد من هؤلاء وصلبهم(٧١). أسفر عن هدوء وسكون نسبيين في بغداد.

في عام (٣٦٤هـ) كان ثمة صراع داخل أجهزة السلطة لدواعي مذهبية وطائفية وهو ما أدى إلى ان "زادت ضراوة العيارين وعاد الفساد وخاف التجار على أنفسهم وأموالهم"(٧٢). وهنا نود ان نشير إلى ان التجار كانوا الهدف الرئيس لحملات العيارين في حين ان ذلك لم يشمل أصحاب الحرف والمهن(٧٣). وفي غضون ذلك أشعل العيارون حريقا ثالثا في بغداد في أواسط شهر محرم، ابتدأ بسوق الخشابين ثم توسع ليمتد إلى سوق الجزارين وأصحاب الحصر (الحصير) الأمر الذي نجم عنه خسائر فادحة(٧٤). غير ان الأمر لم يقف عند هذا الحد، فأية ظاهرة اجتماعية تبدأ بسيطة عادة، إلا ان استمرارها وتكرارها يضفي عليها أبعادا جديدة. فقدت شهدت هذه السنة زيادة أمر العيارين "حتى ركبوا الدواب وتلقبوا

(٧٠) مرآة الزمان، ١٨٣.

(٧١) ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٧٥/١١.

(٧٢) ابن مسكويه، تجارب الأمم، ٦/ ٣٥٥.

(٧٣) التنوخي، الفرج بعد الشدة، ١٠٨/٢.

(٧٤) ابن الجوزي، المنتظم، ٧٥/٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٧٩/١١؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث الأعوام (٣٥١-٣٨٠هـ) ٢٧٥؛ سبط ابن الجوزي، مراة الزمان، ١٨٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٠٧/٤.

بالقواد وغلبوا على الأمور واخذوا الخفائر عن الأسواق والدروب"(٧٥). وهو ما يعني حيازتهم على أموال عريضة تكفيهم لتجهيز أنفسهم بهذه الطريقة، وانهم يأتوا منظمين، فوجود قادة بينهم يعني انهم كانوا على مراتب، وان تنظيمهم هذا كان هرميا يمكنهم من إصدار الأوامر وتنفيذها، وبما يزيد في فاعلية نشاطهم، وعكس ذلك من ناحية أخرى الضعف الكبير الذي انتاب السلطات الأمنية حتى غابت عن الأسواق، فتولى العيارون حمايتها مقابل مقادير من الأموال تجبى منها.

وقد ذكر التوحيدي القادة الذين افرزتهم هذه الأحداث ومنهم: ابن كبرويه وأبو الدود وأبو الذباب واسود الزبد وأبو الأرضة وأبو النوابح. وكان هؤلاء يقودون الغارات وأعمال السلب والنهب وإشعال الحرائق، حتى تعذر أحيانا وصول الماء إلى نواحي من بغداد(٧٦). وأوردت المصادر قصة أحد هؤلاء القادة (كذا) وهو اسود الزبد، الذي كان عبدا اوى إلى قنطرة الزبد من قناطر بغداد، عاش عريانا لا يكاد يستر عورته إلا خرقة رثة من قماش، كان يجمع النوى ويستطعم من قصد المكان للعب واللهو، وبقي على ذلك سنوات لا يؤبه له، لكن ما شهدته تلك السنة من أحداث واسعة النطاق من سلب ونهب وهرج ومرج، فبصر هذا العبد ووجد من هو اضعف منه قد اخذ سيفا وتقوى به على السرقة، فطلب هو أيضا سيفا واشترك في السلب والنهب، حتى ظهر منه ما لم يكن بحسبان أحد، واصبح صاحب مال كثير، ثم وجد نفسه مقدما في أصحابه فـ "صبُح وجهه وعذب لفظه وحَسُن جسمه" هنا جعله أصحابه قائدا عليهم وأطاعوه وفرق فيهم الأموال

(٧٥) ابن الجوزي، المنتظم، ٧٥/٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٧٩/١١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٠٧/٤.

(٧٦) الامتناع والمؤانسة، ١٦٠/٣.

ليصبح بعد ذلك رئيسا فيهم(٧٧). وبلغ من سعة حاله ان اشترى جارية بألف دينارا لكنها تمنعت منه وأظهرت كراهته، فاعتقها ومنحها ألف دينارا أيضا مظهرا فتوته وسماحته(٧٨).

ان الاضطرابات الواسعة التي وقعت في عام (٣٦٤هـ) اضطرت إلى استدعاء أحد القادة (أبو تغلب) إلى بغداد لضبط الأمر فيها، فقتل جماعة من العيارين والشطار(٧٩). وربما تسبب ذلك في تفرق شأنهم، حتى ان اسود الزبد نفسه رحل إلى الشام ومات فيها(٨٠). وهكذا انتهت هذه المرحلة من نشاط العيارين في بغداد لتستقر الأوضاع فيها قرابة خمس عشرة سنة، التي ربما لم تخل من أنشطة صغيرة متفرقة لكنها لم تبلغ مستوى السنوات السابقة في الفاعلية والتأثير.

ب. عقد الثمانيات من القرن الرابع للهجرة

في عام (٣٨٠هـ) اشتدت الفتنة في بغداد بين أهل باب البصرة وأهل الكرخ، وامتدت هذه الفتنة إلى العيارين أنفسهم الذين كانت سطوتهم قد امتدت إلى جانبي بغداد، وصار لكل فريق منهم (أمير) وفي كل محلة (مقدم) منهم، فزاد أذاهم على

(٧٧) التوحيدي، الامتاع والمؤانسة، ٣/ ١٦٠.

(٧٨) الهمذاني، تكملة، ٤٣٥/١١؛ ابن الجوزي، المنتظم، ٧/ ٧٥؛ ابن الكثير، البداية والنهاية، ٢٧٩/١١؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث الأعوام (٣٥١-٣٨٠هـ) ٢٥٧؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ١٨٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٠٨/٤.

(٧٩) الهمذاني، تكملة، ٤٣٥/١١.

(٨٠) ابن الجوزي، المنتظم، ٧٥/٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٧٩/١١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٠٨/٤.

الناس، لقد افتتن العيارون بينهم حتى احرق بعضهم محال بعض(٨١). ولم تجسر السلطات على الدخول بينهم(٨٢). ثم جرى تعيين أبي محمد الحسن بن مكرم الحاجب على الشرطة، واتسمت سياسته بالشدة الكبيرة تجاه هذه الفئة، فهرب من هرب وقبض على كثيرين منهم، فاستقامت الأمور، ثم استعفى بعدها من منصبه(٨٣).

في أوائل عام (٣٨١هـ) غادر بهاء الدولة بغداد، مخلفا وراءه نوعا من الفراغ الأمني فـ "كثرت فتن العيارين" حتى تحاربوا بينهم كلٌ يتعصب لمحلته ودربه، فأعيا ذلك السلطات القائمة، واستمرت عمليات السلب والنهب، وتعاقب على منصب (صاحب المعونة) عديدون عجزوا عن القيام بعمل حقيقي للحد من اعمال العيارين(٨٤). إلا ان عودة بهاء الدولة إلى بغداد غير مجرى الأمور حيث جرى تتبع هؤلاء وقتلهم، فسكنت الأحوال مرة أخرى، وكان في جملة من قبض عليهم من العيارين قائد لهم يدعى (ابن جوامرد) كانت السلطات تستعين به لحراسة الأسواق في أيام (صمصام الدولة) فأطلقه بهاء الدولة ليستمر في عمله هذا(٨٥).

وفي عام (٣٨٤هـ) تفاقم نشاط العيارين وقادهم زعيم يدعى عزيز البابصري من أهل باب البصرة، التف حوله عدد كبير من هؤلاء الاتباع ومن أهل الفساد، ومما ميز فعالياتهم في هذه السنة إشعالهم النيران في المحال والدروب،

(٨١) ابن الجوزي، المنتظم، ١٥٣/٧؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث الأعوام (٣٥١-٣٨٠هـ) ٤٨٧.

(٨٢) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٢٣٧.

(٨٣) أبو شجاع، ذيل تجارب الأمم، ١٨١.

(٨٤) السابق، ١٨٧.

(٨٥) السابق، ١٩٩.

بل انهم نجحوا في تتبع رجال الشرطة لقتلهم، كما انهم قاموا مرة أخرى بفرض الضرائب على الأسواق وجباية وارداتها، ومدوا نشاطهم هذا ليشمل السفن في دجلة فارضين على أصحابها الضرائب، ثم اشتدت الحملة عليهم، فهربوا وتفرقوا(٨٦). ويعتقد ابن كثير ان القصص التي قيلت في احمد الدنف وما شاع عنه من حيل، كان المعني بها البابصري أو أحد اتباعه(٨٧). ودون سبب حقيقي ظاهر خفت نشاط العيارين مرة أخرى لخمس سنوات، ليظهر من جديد في عام (٣٨٩هـ).

ج. عقد التسعينات من القرن الرابع للهجرة

بدأت الموجة الثالثة من أنشطة العيارين في عام (٣٨٩هـ) حيث تمت الاستعانة بهم في تصفيات داخل جهاز الحكم(٨٨). مما يؤشر تفاقم وجودهم من جديد، وفي عام (٣٩٠هـ) بات خطرهم كبيرا، حيث لم يكتفوا بكبس بيوت الناس ليلا، بل فعلوا ذلك (نهارا جهارا) فأخذوا الأموال وقتلوا الناس، وصارت شوكتهم قوية، لينضم إليهم علويون وعباسيون. ثم عين (بهاء الدولة) عميد الجيوش لتدبير أمر العراق والحد من نشاط العيارين، فطاردهم وقبض على جماعات منهم، واعمل فيهم القتل والتغريق، لهذا سكن الأمر بعض الشيء(٨٩). بعدها تجددت الاضطرابات مرة أخرى في العام اللاحق(٩٠).

---

(٨٦) ابن الجوزي، المنتظم، ١٧٤/٧؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ١٠٦/٣.

(٨٧) البداية والنهاية، ٣١٢/١١-٣١٣.

(٨٨) الصابي، تاريخ هلال، ٥/٨-٦.

(٨٩) الذهبي، العبر، ١٧٨/٢.

(٩٠) الصابي، تاريخ هلال، ٧٥/٨-٧٦.

وفي عام (٣٩٢هـ) كان الأمر فادحا، ففي شهر رمضان زاد نشاط العيارين من العلويين، فواصلوا (العملات) واخذوا أموال الناس[٩١]. وكان الأمر يزداد سوءا يوما بعد يوم، حتى انهم نجحوا في كبس دار أحد المسؤولين، وهو الناظر في ديوان المواريث وبعض الشؤون المالية، لكن هذا لم يكن موجودا في بيته، كما انهم قتلوا بعض المسؤولين والوجوه[٩٢]. وأمام هذه المخاطر الكبيرة اضطر أعيان بغداد للهرب من مدينتهم إلى البطيحة – اهوار – والكوفة وغيرهما للخلاص بأنفسهم وأموالهم، فاعيد عميد الجيوش مرة أخرى إلى بغداد، وإزاء ذلك هرب الكثير من العيارين والشطار، فجد في طلبهم ولا سيما العباسيين والعلويين منهم، وكان يقرن العباسي بالعلوي ثم يغرقهما في النهر بمشهد من الناس، ونجحت هذه السياسة المفرطة في القسوة في تحقيق نوع من الهدوء في بغداد[٩٣]. وما ذكره ابن الأثير بشان أحداث تتعلق بعام (٣٩٣هـ)[٩٤]. نعتقد انه يعود إلى العام السابق لتشابه الأحداث بين ما ذكرته المصادر بشان عام (٣٩٢هـ) وما ذكره هو بشان عام (٣٩٣هـ) وهو العام الذي لم تشر المصادر إلى أية أحداث قد وقعت فيه، وفي الوقت نفسه لم يشر ابن الأثير من جانبه إلى ما وقع في عام (٣٩٢هـ).

بعد ذلك لم تذكر المصادر شيئا من فعاليات العيارين حتى عام (٣٩٨هـ) الذي تجدد فيه نشاطهم، فطاردتهم الشرطة وشردتهم لتهدأ الأحوال مرة أخرى[٩٥]

(٩١) الصابي، تاريخ هلال، ١٠٥/٨؛ ابن الجوزي، المنتظم، ٢١٩/٧.

(٩٢) الصابي، تاريخ هلال، ٨/ ١١٥.

(٩٣) المصدر السابق، ١٠٧/٨؛ ابن الجوزي، المنتظم، ٢٢٠/٧؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٢٦٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٣٣٠/١١.

(٩٤) الكامل، ١٧٨/٩.

(٩٥) ابن الجوزي، المنتظم، ٢٣٧/٧؛ ابن الكثير، البداية والنهاية، ٣٣٨/١١.

مدة عشر سنوات، تجددت بعدها فعاليات العيارين في عام (٤٠٨هـ) وفيها أسرفوا في تتبع أموال الناس والسطو عليها[٩٦].

د. أحداث الأعوام (٤١٥-٤٢٨هـ)

وهي أطول مرحلة اتصل فيها نشاط العيارين، ومثلت في الوقت نفسه ذروة نشاطهم، بدأت فيها الاضطرابات في شهر رجب من عام (٤١٥هـ) وتواصلت حتى نهاية عام (٤١٦هـ). بدأت الأحداث على شكل فتنة بين العيارين والعامة من جهة والجند الأتراك من جهة أخرى، قام فيها الجند بإحراق محلة طاق الحراني انتقاما من أهلها، وفي غضون هذه الأحداث احرق العيارون دار الشريف المرتضى ونهب ما تبقى منها، ومما ميز عملياتهم أيضا نهبهم الدور في وضع النهار، اما عملياتهم الليلية فجرت تحت أضواء المشاعل، دون أي تكتم، متحدّين الشرطة، فكانوا يدخلون على الرجل من أصحاب الأموال مطالبين إياه باستخراج ما عنده من أموال وذخائر مستخدمين الضرب في ذلك. فيستغيث الرجل ولكن لا مغيث، كما انهم مارسوا القتل دون رادع ولا وازع، ثم اشتد عداءهم للجند الأتراك، ولم يكن لأصحاب الشرطة من بد إلا ترك البلد، فاضطر الناس إلى وضع الأبواب على الدروب وكانت تغلق ليلا، للحؤول دون اقتحام العيارين لها، إلا ان ذلك لم يغن شيئا[٩٧]. ويبدو ان وفاة (شرف الدولة) في هذه السنة كانت فرصة طيبة

(٩٦) ابن الجوزي، المنتظم، ٢٨٧/٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٦/١٢.

(٩٧) ابن الجوزي، المنتظم، ٢٢/٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ١٩/١٢؛ انظر أيضا: ابن الأثير، الكامل، ٣٤٩/٩؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٢٢٨؛ الذهبي، العبر، ٢٣٠/٢؛ ابن العماد، شذرات، ٢٠٤/٣.

لتأجيج الفوضى والاضطراب بوجه السلطات[98]. وهو ما رافقه أيضا الصراع داخل أجهزة السلطة نفسها حول المناصب والمصالح.

وفي مطلع عام (٤١٧هـ) وصلت بغداد فرقة من الجند (الاصفهلارية) لحفظ الأمن فيها وقمع نشاط العيارين، فكتبوا الكتب إليهم بالانصراف عن البلد، غير ان الاستهانة بلغت بالعيارين مبلغا كبيرا، إذ خرجوا بأنفسهم إلى معسكر هؤلاء الجند يصيحون عليهم بالسب والشتم، ثم وقع القتال بينهما، حتى لبس الجند عدة الحرب وقرعوا الطبول، وتطور الأمر إلى ان هاجم الجند محلة الكرخ، اكبر أسواق بغداد التجارية، و (وقعت النار) فاحترقت أسواق ومحال كثيرة، ورافقتها أعمال نهب وسلب واسعة النطاق استمرت يومان، ولابد من ملاحظة ان أعمال النهب هذه مارسها الجند والعامة والعيارون على حد سواء. وهو ما دفع الشريف المرتضى بالتقدم لمقابلة الخليفة ليطلعه على تفاصيل ما حدث، مستجيرا به وطالبا فرض الأمن في البلاد، فخلع عليه الخليفة، ثم شدد الاصفهلارية قبضتهم لضبط الأوضاع، بعدها فرضت على الناس مصادرات واسعة[99]. أعقبها فرصة للهدوء النسبي حتى عام (٤٢٠هـ) لتنبعث أنشطة العيارين مرة أخرى[100].

في العام اللاحق تفاقم الأمر كثيرا، ففي مطلع شهر صفر منه كبس خمسون عيارا دار أحد الأشخاص في محلة نهر الدجاج، فقتلوه وقتلوا من كان معه، ثم احرقوا الدار، دون ان يجرؤ أحد من الجيران على فعل شيء خوفا من أعمال الانتقام، وكان هذا في الجانب الغربي، اما في الجانب الشرقي من المدينة فقد

---

(٩٨) ابن العماد، شذرات، ٢٠٤/٣؛ أبو الفداء، المختصر، ٥٤/٤.

(٩٩) ابن الجوزي، المنتظم، ٢٤/٨-٢٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٠/١٢.

(١٠٠) ابن الجوزي، المنتظم، ٤٠/٨؛ ابن الأثير، الكامل، ٣٩٣/٩.

استشرى فيه نشاط أحد قادة العيارين يدعى (البرجمي) الذي تمكن من بلوغ بعض مخازن الأمتعة والمؤن، فنهب شيئا كثيرا منها، وقد لقي الناس منه أذى كبيرا[١٠١]. ثم توسع نشاط البرجمي في شهر شوال، فقصد مع اتباعه درب علية ودرب الربيع وفتحوا ما وجدوه من مخازن وخانات، سالبين ما قدروا على حمله، كما كبسوا عددا من الدور واستولوا على ما فيها[١٠٢].

وفي عام (٤٢٢هـ) تفاقم الأمر كثيرا مرة أخرى، فقد كانت الفرصة للعيارين طيبة باشتعال نار الفتنة في شهر ربيع الأول، فدخلوا البلد منتشرين في أسواقها ودروبها، ومارسوا ما يحلوا لهم من أنشطة وفعاليات، فكثرت (العملات) ليلا ونهارا، ولما تجددت الفتنة في شهر شوال من العام نفسه، تجدد نشاط العيارين أيضا[١٠٣]. فثار أهل الكرخ بهم بعد ان سرقوا من أصحاب الأكسية أمتعة كثيرة، ثم هربوا، ورابط التجار في دكاكينهم ليلا ونهارا، كما قاموا بمكاتبة (حاجب الحجاب) بان يتخذ ما يلزم لحماية الأمن، فاعيد أبو محمد النسوي إلى منصب صاحب الشرطة، حيث شددت الشرطة من إجراءاتها فقتلوا أحد العيارين ونهبوا الدار التي استتر فيها، وبعد هدوء نسبي جدد العيارون نشاطهم، حتى اضطر صاحب الشرطة إلى الهرب، فعادت الفتنة إلى بغداد[١٠٤]. ثم تجرأ العيارون على دار السلطنة فنقبوها واخذوا منها قماشا[١٠٥].

(١٠١) ابن الجوزي، المنتظم، ٤٧/٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٨/١٢.

(١٠٢) ابن الجوزي، المنتظم، ٥٠/٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٣١/١٢.

(١٠٣) ابن الأثير، الكامل، ٤١٨/٩.

(١٠٤) ابن الجوزي، المنتظم، ٥٤/٨.

(١٠٥) الذهبي، العبر، ٢٤٥/٢.

وفي العام اللاحق؛ وفي مطلع صفر منه، ثار تجار الكرخ بالعيارين مرة أخرى، فهربوا وطوردوا وكبست دورهم وأخذت أسلحتهم، وكتب التجار إلى السلطات طالبين العون، غير ان العيارين لم يلبثوا سوى أياما قليلة ثم عادوا لممارسة نشاطهم، فكبسوا دار أحد الوعاظ، ليأخذوا ماله وما أودعه الناس عنده من مال، وعادوا إلى كبس دور الناس حتى اصبح ذلك سلوكهم الرئيس، واختلط معهم في هذه الممارسة عدد من الأتراك وحواشيهم(١٠٦). وقاد زعيمهم البرجمي عملية سطو كبيرة على أحد الخانات ببغداد، فنهب وقتل. كما فرض الضرائب على السفن الصاعدة والمنحدرة في دجلة، وما استجد في عمله، انه لم يكتف بنهب الدور، بل كان يختم ذلك بإحراق الدور التي نهبها. كل ذلك كان يجري والسلطات عاجزة ترقب الأوضاع وحسب(١٠٧). ثم أعيد ابن النسوي إلى الشرطة في بغداد، فاجتهد في ردع العيارين وقمع نشاطهم(١٠٨).

وفي عام (٤٢٤هـ) بلغ العيارون درجة خطيرة جدا من السلب والنهب وتحدي السلطات، ولما تجرأ أحد قادة الجند على اعتقال أربعة من العيارين، قام (عقيدهم) بأخذ أربعة من جند ذلك القائد، ثم نقدم إلى داره لمفاوضته في الأمر، إلا ان هذا لم يجرؤ على الخروج من داره، بل كلم العيار من داخلها، حيث اتفق الطرفان على إطلاق ما احتُجز من اتباع(١٠٩). وفي أواخر شهر صفر كبس البرجمي درب أبي الربيع ووصل إلى مخازن فيها أموال كثيرة جدا. وشاع بين الناس ان جماعة من الجند الاصفهلارية يتعاونون معه، الأمر الذي افزع الناس

(١٠٦) ابن الجوزي، المنتظم، ٦٢/٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٣٤/١٢.

(١٠٧) ابن الجوزي، المنتظم، ٦٦/٨.

(١٠٨) السابق، ٦٦/٨-٦٧.

(١٠٩) ابن الأثير، الكامل، ٤٣٢/٩.

وأيقنوا بتلف أموالهم فنقلوها إلى دار الخليفة للأمان الذي (تنعم) فيه، ولا سيما بعد ان زاد عدد الجند الذين يحرسونها، كما قام التجار بالمرابطة في أسواقهم ليلا ونهارا. وفي هذه الأجواء قتل صاحب الشرطة غيلة. فكان لابد لهذا الحديث ان يترك اثاره الواضحة في مزيد من التدهور على الأوضاع. فقد زادت العملات، وكبست دار أحد التجار التي اخذ منها عشرة آلاف دينار. وبلغ الرعب بالناس انهم لم يكونوا يجرؤن على ذكر اسم البرجمي، بل يذكر بوصفه القائد أبي علي، احتراما وتعظيما لشانه. وأمام هذه الأوضاع قرر قادة الاصفهلارية الخروج بقوتهم العسكرية إلى حيث يعسكر البرجمي وأصحابه، وكان المكان عبارة عن اجمة كبيرة من ماء وقصب امتدت لمسافة خمسة فراسخ (=٣٠كم) وفي وسطها تل اتخذه قائدهم معقلا ومنزلا له، فحوصر المكان إلا ان البرجمي خرج إليهم (كذا) وخاطبهم بقوله: من العجب خروجكم إلي، وأنا عندكم في كل ليلة، فان شئتم ان ترجعوا وأنا آتيكم، وان شئتم الدخول إلي فافعلوا، غير ان جماعة من الاصفهلارية راسلوه سرا وشدوا من أمره، فعاد الجند دون فعل شيء[١١٠].

وفي جمادى الأولى من العام نفسه (٤٢٤هـ) زادت عملات العيارين وكبساتهم للدور مرة أخرى وعمت الفوضى مناطق واسعة من بغداد، فاحترقت الأسواق ونهب درب عون وأخذت أبوابه، ونهب درب القراطيس أيضا والفروع التي تؤدي إليه[١١١]. وكان الأمر يزداد تفاقما في كل يوم، ولم تنفع أية إجراءات لردع العيارين، بل ان صاحب الشرطة اضطر نفسه إلى الاختفاء. وبلغ الأمر حدا خطيرا في أواخر شهر شوال، مما حدى بالعامة إلى الثورة في جامع الرصافة

(١١٠) ابن الجوزي، المنتظم، ٧٢/٨؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٢٦٣.

(١١١) ابن الجوزي، المنتظم، ٧٢/٨.

ومنعوا الخطبة ورجموا الخطيب في يوم الجمعة، وقالوا: اما ان تخطب للبرجمي، وإلا فلا خطبة لخليفة أو لملك، عندها اضطرت السلطات إلى تشديد الإجراءات وعين أبو الغنائم بن علي على المعونة، فقتل جماعة من العيارين، فهدأت الأحوال نسبيا[١١٢]. لقد بلغ من سخرية الأوضاع ان أحد (وجوه القادة) الأتراك أراد ان يختن ابنه فلم يقدر على ذلك حتى أهدى للبرجمي هدايا قيمة، طالبا منه الذمة والحماية على داره في أثناء الحفل، كل هذا التدهور في الأمن وبغداد فيها عشرين ألفا من العسكر والجند[١١٣].

ولم يكن عام (٤٢٥هـ) اقل مأساوية من الذي قبله، فقد وقعت الفتنة ببغداد التي كان من طرائقها انتقال عدواها إلى العيارين أنفسهم، فتحزب كل فريق منهم إلى طائفته ومذهبه[١١٤]. إذ عمل عيارو الكرخ مجانيق مذهبة، اصطحبوها معهم في زيارة المشهد الحائري في منتصف شعبان، فقام اثنان من وجوه العيارين، كانا قد تابا وعملا في دار الخلافة، بصنع مجانيق مماثلة صحبوها معهم برفقة عدد من اتباعهم السابقين من العيارين إلى قبر مصعب بن الزبير في الأول من رمضان[١١٥]. وكل ذلك كان من الأمور التي ابتدعت في حينه، وكلّ كان يريد كيد الطرف الآخر، فعاد العيارون إلى الانتشار ومواصلة كبساتهم بالليل والنهار، باسطين سطوتهم على كل شيء، من ذلك ان البرجمي اتفق مع عامل المآصر الأعلى بقطيعة الرقيق، بان يعطيه هذا في كل شهر عشرة دنانير من وارد المآصر وان يسمح بمرور سميريتين – وهي من سفن النقل – بغير اعتراض، مقابل تعهد

(١١٢) ابن الجوزي، المنتظم، ٧٥/٨.

(١١٣) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٢٦٣.

(١١٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ٣٦/١٢.

(١١٥) ابن الجوزي، المنتظم، ٧٨/٨.

البرجمي بتوفير الحماية لهذه المآصر. ثم عاث هذا فسادا في الجانب الشرقي، ودخل خانا يدعى بخان القوارير، ونهب منه شيئاً كثيرا، ثم حاول بسط نفوذه على الجانب الغربي أيضا، إلا انه لم يفلح في ذلك كما يبدو. بسبب قيام الناس بحراسة محالهم ودروبهم[١١٦]. في حين نجح في كبس دار مجاورة لدار الوزير[١١٧].

وبلغت الاستهانة حدا ان طلب البرجمي ان يتولى هو منصب صاحب المعونة وحفظ الأمن، فاجيب إلى ذلك فـ "وجدت (أي حصلت) فضائح لم يدون مثلها" ثم ادخل العيارون أيديهم في "أعمال السلطان وجبوا البلد" كما "عملوا لهم اعلاما مذهبة وتسموا بالقواد وغلبوا بغداد من الجانبين، وبذل (معتمد الدولة) للبرجمي مالا كثيرا"[١١٨]. وعند هذا الحد كان العيارون قد ملكوا الأمور فعلا. واصبحوا هم السادة والحكام ولم يكن أمامهم سوى إعلان سقوط السلطة البويهية وإعلان حكومة أخرى غيرها و (تحرير) الخلافة من تغلب هؤلاء. إلا ان شيئا من ذلك لم يحصل، لان هؤلاء ببساطة لم يكونوا يمثلوا أية مقاومة للتغلب البويهي، وليس لهم أدنى تصور سياسي عن الدولة والسلطة والحكم، وجل ما يعنيهم ان تكون السلطة في اضعف أحوالها، فذلك ما يمثل المناخ الأمثل لممارسة نشاطاتهم في السطو والسلب والنهب، وهذا يفسر تصديهم في بعض الأحيان لرجال الشرطة والسلطة، لان هؤلاء خصومهم الحقيقيون في أنشطتهم، وقوة هؤلاء تعني الحد من نشاطاتهم في السرقة واللصوصية، في حين ان ضعف أجهزة الشرطة واستهدافا

(١١٦) ابن الجوزي، المنتظم، ٧٦/٨-٧٧.

(١١٧) ابن الأثير، الكامل، ٤٣٨/٩.

(١١٨) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٣٦٤.

يتيح لهم حرية في فعالياتهم وأنشطتهم، ان العيارين لم يفكروا إطلاقا في تغيير شيء من معالم السلطة السياسية، لأنهم لا يدركون من ذلك شيئا لبساطة عقولهم ومحدودية ثقافاتهم وجهلهم في آليات بناء الأفكار وتوجيهها الوجهة الصحيحة غير السلب والنهب.

اما نهاية البرجمي هذا، فكانت قاسية هي الأخرى، حيث قُبض عليه ثم جرى تغريقه في روايتين مختلفتين، نسبت الأولى لقرواش القيام بهذا العمل، حيث جاءه البرجمي ملتمسا منه إطلاق أحد الأشخاص الذين قبض عليهم، لمودة كانت بينهما، غير ان قرواشا لم يعر ذلك أدنى رعاية، بل انه قبض على البرجمي الذي أغراه بالمال الكثير، فلم يغن عنه ذلك شيئا، فغرقه(١١٩). وفي رواية أخرى ان (معتمد الدولة) نجح في القبض عليه في منتصف رمضان من عام (٤٢٥هـ) فغرقه في النهر رافضا الرشوة التي عرضها عليه ان هو أطلقه(١٢٠). بعد ذلك جرت محاولات لاستصلاح شان العيارين بالتوبة والعمل في دار الخلافة أو ان يتركوا البلد، ومنحوا لذلك مهلة أمدها ثلاثة أيام، فخرج معظمهم من بغداد، لكنهم لم يلبثوا إلا يسيرا ثم عادوا من جديد، فكثر الفساد أيضا، حتى ان صاحب الشرطة اضطر للاستعفاء من منصبه خوفا على نفسه من بطشهم ولعجزه عن فعل شيء إزائهم(١٢١).

وفي عام (٤٢٦هـ) تجددت الفوضى في بغداد، وواصل العيارون عملاتهم ليلا ونهارا "ولا مانع لهم لان الجند يحمونهم على السلطان ونوابه والسلطان عاجز

(١١٩) ابن الأثير، الكامل، ٤٣٨/٩.

(١٢٠) ابن الجوزي، المنتظم، ٧٩/٨؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٣٦٤.

(١٢١) ابن الجوزي، المنتظم، ٧٩/٨.

عن قهرهم"(١٢٢). واستشرى أمرهم فـ " فتكوا وقتلوا" فقتل صاحب الشرطة منهم رجلا، فقتلوا اثنين، ثم احتشدوا لمقاتلة صاحب الشرطة نفسه، واستعد هو لقتالهم، عندها لجأ العيارون إلى الاحتماء بدور الجند الأتراك، يقيمون فيها نهارا ويخرجون منها ليلا لممارسة نشاطاتهم. ثم كتبوا رقاعا والقوها في الطرقات يطلبون فيها إقصاء أبي الغنائم عن منصبه كصاحب شرطة، مقابل حفظهم البلد، فعم الفساد ومنع السقاؤون من حمل الماء إلى بعض المحال، وأصيبت السلطات بخذلان كبير فسيطر العيارون على بغداد(١٢٣). و "ملكوا الجانبين ولم يبق للخليفة ولا لجلال الدولة حكم"(١٢٤). وهنا ظهر منهم كل سوء في الخلق فـ "كاشفو بالإفطار في رمضان وشرب الخمر وارتكاب الفروج" كما أشعلوا الحرائق في الأسواق والمحلات مع أعمال سلب ونهب متواصلة(١٢٥). وكأن السلطات أسلمت الأمر والقياد لهؤلاء فعليا يعيثون في بغداد فسادا دون وازع أو رادع. ليكون ذلك الفراغ السياسي والأمني الثاني الذي تشكل في بغداد ولم يتمكن أحد من انتزاع المبادرة وإعلان سلطة سياسية حقيقية تمسك بالامور بقوة وتنقذ البلاد من الفساد المستشري، ويعود ذلك ببساطة إلى انه لم تكن هناك أية قوة حقيقية تتولى هذه المسؤولية لخلو بغداد من أية جهة سياسية قادرة على استغلال مثل هذه الفرصة. ولم يكن سبات الخليفة قد انقضى اجله بعد، فكان اضعف من ان ينفخ الروح مرة أخرى في مؤسسة الخلافة وكان العجز واضحا واشهر من ان يشار إليه.

---

(١٢٢) ابن الأثير، الكامل، ٩/٤٤٠.

(١٢٣) ابن الجوزي، المنتظم، ٨/٨٢.

(١٢٤) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٣٦٩.

(١٢٥) ابن الجوزي، المنتظم، ٨/٨٣؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٣٦٤.

وفي المحرم من عام (٤٢٧هـ) كبس العيارون دار أحد القادة الأتراك (بلور بك التركي) في محلة باب خراسان واخذوا ما فيها، بعدها بثلاثة اشهر هاجموا دار صاحب الشرطة (ابن النسوي) واحرقوها، وكانوا قرابة المائة رجل، ثم فتحوا أحد الخانات ونهبوها على مسمع ومرأى من الناس، ولا أحد يجرؤ على تحريك ساكن[١٢٦]. وفي جمادى الآخرة من العام اللاحق هاجم العيارون أحد السجون بالجانب الشرقي، واخذوا منه رجالا معينين ثم قتلوا سبعة عشر من رجال الشرطة[١٢٧]. كما تمادوا في أعمالهم التي استهدفت بسطاء الناس أيضا مثل السقائين، حيث سلبوهم بغالهم، واخذوا من القصارين ثيابهم[١٢٨].

هـ. المرحلة الأخيرة من نشاط العيارين

يبدو ان الأجواء ببغداد تمتعت ببعض الاستقرار لأكثر من عشر سنوات، حيث خفت نشاط هؤلاء بشكل مفاجئ وهم في ذروة فعالياتهم وسطوتهم ونفوذهم، وليس في المصادر ما يفسر سبب هذا الهدوء ليظهر من جديد في عام (٤٤١هـ) بشكل ملفت للنظر من جديد. فاشتدت شوكتهم في الجانب الغربي من بغداد، حتى اضطر كثير من الناس إلى ترك مساكنهم والانتقال إلى القسم الشمالي من الجانب الغربي (منطقة الحريم) فاشتروا الخرابات وعمروها[١٢٩]. ونجح العيارون في عام (٤٤٣هـ) في كبس صاحب الشرطة أبو محمد بن النسوي نفسه وأصابوه بجروح

(١٢٦) ابن الجوزي، المنتظم، ٨٨/٨؛ الذهبي، العبر، ٢٥٥/٢.

(١٢٧) ابن الجوزي، المنتظم، ٩١/٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٤٠/١٢.

(١٢٨) ابن الجوزي، المنتظم، ٩١/٨.

(١٢٩) السابق، ١٤٢/٨.

عديدة[١٣٠]. وفي العام اللاحق اشتدت الفتنة في بغداد، فظهر العيارون مجددا، فنهبوا الأسواق واخذوا الأموال، وكان على رأسهم زعيمان هما الطقطقي والزبيق[١٣١]. ثم تراجعت نشاطاتهم بعد ذلك إلى حد كبير، مع ان السلطة كانت قد بلغت أدنى ضعف لها حيث سقطت في عام (٤٤٧هـ) بمجيء السلاجقة وسيطرتهم على بغداد، ويبدو ان نشاط العيارين تراجع من نشاطات كبيرة ملفتة للنظر إلى نشاطات صغيرة يقوم بها الأفراد بصفاتهم الفردية معتمدين الحيلة والدهاء والمكر، بدلا من القوة الكبيرة المكونة من رجال كثيرين، وذلك ما يمكن استنتاجه من اسم الزبيق نفسه الذي يوحي بالعجز عن الإمساك به، الأمر الذي دل على خفة في الحركة وسرعة في النشاط، وهذا من سمات النشاط الفردي لا الجمعي، عليه فان اختفاء أخبار العيارين في هذه المرحلة لا يعني انعدامها كليا بل ان الأمر تحول إلى أنشطة فردية صغيرة.

النتائج وتحليل المعطيات

لم تذهب آراء الباحثين في تاريخ حركة العيارين الشطار ابعد من القراءة الظاهرية لوقائع تاريخها، فوصفت بأنها ثورية شعبية استهدفت التصدي للبويهيين والتصدي لأصحاب الأموال، غير ان تحليل معطيات تاريخ هذه الحركة والحيثيات التي نشأت في ظلها تؤشر إلى اتجاهات بعيدة عما ذهب إليه هؤلاء الباحثون.

(١٣٠) ابن الجوزي، المنتظم، ١٥١/٨.

(١٣١) ابن الأثير، الكامل، ٥٩١/٩.

فقد نشأت هذه الحركة منذ أواسط القرن الثاني للهجرة واستمرت عقودا طويلة من الزمن بوصفها رد فعل طبيعي على الأوضاع الاقتصادية السيئة وتفشي الفقر في طبقة العامة واتساع الهوة بين الفقراء والأغنياء، حتى لم يبق ثمة أمل أمام المعدمين بإمكانية تحسين أوضاعهم المعيشية، فعانى هؤلاء من حالة إحباط شديد وعجز كبير، كان لابد ان تتولد عنه معطيات خطيرة من القوة والعنف والسعي للحصول على الأموال بغض النظر عن الطريقة والوسيلة. لهذا تجدهم قد وضعوا نصب أعينهم ثروات الأغنياء ولا سيما التجار منهم. ان هذه الحيثيات التي وقفت وراء نشوء هذه الحركة استمرت طوال وجودها، فلم تشهد الأوضاع الاقتصادية أي تحسن يمس أوضاع هؤلاء، فكان لابد للحركة من ان تستمر وتشتد كلما ازدادت الأوضاع سوءا.

عليه، ومن الناحية المبدئية، فانه لم تكن هناك أية حيثيات سياسية وقفت وراء النشأة الأولى لهذه الحركة، إذ لم يكن في الأوضاع السياسية ما يدفع هؤلاء للتمرد عليها، بيد ان ظهور الصراع بين الأمين والمأمون ثم بين المستعين والقادة الأتراك، خلق مناخا سياسيا عاما في بغداد كان جديدا في مؤشراته فقد كان الخليفة الشرعي في خطر، وبرز الخليفة في كلا الحالتين مدافعا عن حقه فقاد الجيش والعامة، التي استجابت لدواعي الخليفة في الدفاع عن حقه هذا، وهكذا الخرط العيارون في هذا الصراع مناصرين لخليفتهم ولمدينتهم التي كان الخطر محدقا بها.

اما بشأن الحالة التي نحن بصددها والمتعلقة بموقف العيارين إزاء السلطة البويهية وطبيعة العلاقة المترتبة بينهما، فيحسن بنا أن نأخذ المؤشرات الآتية بنظر الاعتبار:

- ان مفهوم (المقاومة) الشعبية المسلحة، هو من المفاهيم الحديثة التي تبلورت في ضوء حركة الاستعمار التي اجتاحت العالم بعد حركة الاستكشافات الجغرافية،

وبالتالي فان هذا المفهوم كان غائبا عن الساحة السياسية والفكرية، وبما ان المفاهيم هي التي ترسم حدود حركة الإنسان واتجاهاتها، لذا فان غياب مفهوم ما عن الساحة الفكرية يعني استجالة تفسير أي سلوك أو ظاهرة سياسية على ضوئه، ولا سيما مع وجود مفاهيم أخرى كان لها دورها السياسي والفكري في حينه.

➢ وفي هذا الإطار فان مما يجب ان يوضع في الحساب عند مناقشة أية ظاهرة اجتماعية أو سياسية هو التعرف على المناخ الفكري السائد الذي نشأت الظاهرة في اطاره العام. فقد كانت الشريعة الإسلامية والأفكار الإسلامية هما المناخ الذي تحركت في ظله معطيات تاريخنا الإسلامي. وهذا المناخ الفكري لم ينظر إلى البويهيين بوصفهم أجانب أو غزاة، بل هم مسلمون متغلبون، تغلبوا على السلطة، والمتغلب في ضوء المؤشرات الشرعية له كلمة نافذة، ولا سيما ان البويهيين ابقوا على الخليفة، وان كان ذلك اسميا، ولهذا لم نجد أيا من الفقهاء أو العلماء أفتى بوجوب الخروج على هؤلاء بالسيف أو التصدي لهم بالقوة، ليس لان هؤلاء المتغلبين كانوا على صواب تام وحازوا على الشرعية التامة، ولكن لم يكن الخروج عليهم بالسيف لازما في حينه، وفي مثل حالتهم يكون التصدي لهم بوسائل أخرى غير السيف، من ذلك المقاطعة وعدم معاملتهم، ان الخلفاء العباسيين أنفسهم لم يقودوا مقاومة حقيقية لهؤلاء في بغداد على غرار ما فعله الأمين والمستعين، لهذا لم يكن هناك ما يعبئ العامة ويحشدها نحو التصدي للبويهيين. والعامة ليست هي التي تبني الأفكار أو تقود الجماعات بل العامة تكون عادة منقادة، فلما لم يكن هناك من يقودها، لذا لم يكن منتظرا منها ان تفعل ما هو خارج قدرتها. وقد تبين من خلال العرض السابق في سياق البحث ان سلطة البويهيين بلغت درجة كبيرة من الهشاشة والضعف إلا ان ذلك قابله فراغ سياسي من الجانب

الآخر، فلم تكن ثمة قوة تتولى قيادة الأمور والاستيلاء عليها، والخليفة نفسه قد بلغ من الضعف ما جعله عاجزا عن القيام بفعل حقيقي وجاد ضد البويهيين.

- ان هدف تغيير السلطة لم يكن ظاهرا ولا فاعلا على أي مستوى فكري أو سياسي، وغياب الهدف يعني غياب القوة المحركة والدافعة نحو الهدف نفسه، فمن العقم ان توصف أفعال العيارين بانها مقاومة مع غياب هدف تغيير السلطة من الأذهان. ومجرد الموافقة في الشكل لا يعني وجود مثل هذا الهدف. فتصدي العيارين للشرطة وبعض رجال السلطة لا يعني ان ذلك يمثل مقاومة سياسية. بل جاء تصديهم لهم لكونهم المعوق لأنشطتهم في السلب والنهب. لهذا كان تصديهم لهم في الحقيقة على قدر عرقلة هؤلاء لفعاليتهم وأنشطتهم هذه. لذا فان توصيفات من قبيل المقاومة والثورة الشعبية لم تكن سوى عملية إسقاط لمفاهيم حديثة على وقائع تاريخية لا تمت لهذه المفاهيم بصلة.
- لقد كشفت حركة العيارين والشطار عجز الدولة والمجتمع عن معالجة الأوضاع الاقتصادية المتدهورة، الأمر الذي كان لابد ان يترتب عليه انبثاق ظواهر خطيرة شكلت ردود فعل سلبية على هذا العجز والإحباط الذي أصاب القطاعات الفقيرة من المجتمع، حيث أفرخت هذه الأوضاع حركة العيارين والشطار بكل تداعياتها السلبية والإيجابية.